

## المحاضرة الثانية

### السنة الثانية

23/3/2020

### تاريخ الفلسفة الهلنستية

د. علي اسبر

لئن كان الأبيقوريون يصرون في موقفهم عن رؤية للعلم تنتهي إلى بلوغ السعادة، فإنَّ الرواقيين يرومون تحقيق العلم الكلي. "وهذا العلم الكلي هو الحكمة؛ لكن الحكمة لا تتال عفواً، بل بتأمل ودرس شاق طويل يسمى الفلسفة"<sup>1</sup>.

وعموماً، فإنَّ الموضوع الأهم الذي يبحث فيه هذا العلم الكلي هو العقل الذي يشمل وجوده عالم الآلهة والطبيعة والإنسان. وبكلمة، الوجود أجمع. وبناءً على هذه الرؤية، فإنَّ الفلسفة عند الرواقيين هي: "علم الموجودات العاقلة، وبعبارة أخرى هي علم الأشياء كلها لأنَّ الأشياء الطبيعية مندمجة في الأشياء الإلهية"<sup>2</sup>.

وينظر الرواقيون إلى الفلسفة بوصفها وحدة واحدة مترابطة الأجزاء بمعنى أنَّ التفكير الفلسفي متجانس ومتوحد ولا تجزؤ فيه، إلا أن الرواقيين قسّموا الفلسفة إلى ثلاثة علوم هي: المنطق والطبيعة والأخلاق. وبالرغم من هذا التقسيم، إلا أن الوحدة في الفلسفة موجودة تماماً والتقسيم نفسه اعتباري الغاية منه هي تسهيل استيعاب الفلسفة للمريدين أو الدارسين. ولذلك الرواقيون "شبّهوا الفلسفة ببستان: علم المنطق سوره، وعلم الطبيعة أشجاره، وعلم الأخلاق فاكهته"<sup>3</sup>.

وأهم جانب من جوانب المنطق الرواقي هو نظرية المعرفة، والمعرفة عند الرواقيين ذات أصل حسّيّ أساسه هو فعالية مباشرة للأشياء في الحس ما يؤدي إلى انطباع صورة الشيء في الحس دون توسّط. وهذا النوع من المعرفة حقيقي لا لبس فيه، ومن ثمَّ تصير المعرفة الحسيّة داخل النفس الإنسانية بمثابة تصديق، "يقوم في النفس مجاوبةً على التأثير الخارجي، وهذا التصديق متعلق بالإرادة، ولو أنه يصدر حتماً كلما تصورت النفس فكرة

<sup>1</sup> - أمين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1945، ص: 59.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، الموضوع نفسه.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص: 63-64.

حقيقية<sup>4</sup>. وبلي التصديق الفهم وأخيراً العلم الذي هو أرقى أنواع الوعي الفلسفي وإن كان أصله هو الإحساس.

و إذا كان العلم يرفع من شأن المعرفة الحسية أو الإدراكات الجزئية بتأليفها وتوحيدها والارتقاء بها إلى مستوى مفهومي يكون الأساس في الحصول على المعرفة الحقّة، فإنّ "العلم لا يخرج عن دائرة المحسوس، وليست معاينة الكلية إلا آثار الإحساسات، تحدث عفواً في كل إنسان دون قصد ولا تفكير، فهي غريزية فطرية بهذا المعنى"<sup>5</sup>.

هذا إلى أن الرواقيين يقولون بمعان أولية موجودة في جميع الكائنات الإنسانية، ويطلق عليها الرواقيون اسم "الأوليات"، التي عليها يقوم صرح العلم. وقد عرّف الرواقيون المعنى الأولي بأنه "الأمر الكلي الذي نتصوره تصوراً طبيعياً"<sup>6</sup>. و الحقيقة أنّ هذه المعاني الأولية التي قال بها الرواقيون تشبه إلى حد بعيد المبادئ التي قال بها أرسطو أي قوانين الفكر. والرواقيون يعتقدون أنّ المعاني الأولية "ليست إلا بدايات وأسساً لكل نوع من أنواع المعرفة إطلاقاً"<sup>7</sup>.

ومن الجدير بالذكر على مستوى نظرية المعرفة عند الرواقيين أنهم على خلاف الأبيقوريين فيما يتعلق بمشكلة الخطأ المعرفي الإنساني فقد رأى الأبيقوريون أنّ الخطأ يجب أن يرجع إلى الأشياء الخارجية وليس إلى الحواس، فالشيء الواحد يبيث صوراً مختلفة له فيلتقطها أشخاص متعددون، لكن كل واحد منهم يلتقط صورة من الشيء يعتقد أنها حقيقة الشيء، لكن زينون الرواقي يرى "أنّ الإنسان حين يقع في الخطأ، فيصدق شيئاً باطلاً، فإثم ذلك عليه هو، لا على الأشياء التي وردت عليه وتأتد إليه دون أن تفرض عليه اعتقاده، بل تركت له من الحرية والاختيار ما يحسن الاستفادة منه"<sup>8</sup>. وبما أنّ الرواقيين قد انتهوا إلى أنّ العلم هو أرقى أنواع المعرفة، فإنّ هذا العلم، يجب أن ينتهي إلى حقائق أساسية، في مجال الطبيعيات التي لها من حيث نتائجها دور كبير في تحديد الموقف العقائدي للفيلسوف الرواقي. وآية ذلك هي سعة الميادين التي يبحث فيها العلم الطبيعي عند الرواقيين، فمجال علم الطبيعة "واسع يشمل من المباحث ما يتصل بالكون بما فيه الله والإنسان"<sup>9</sup>.

<sup>4</sup> - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص: 224.

<sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص: 224.

<sup>6</sup> - أمين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مرجع سبق ذكره، ص: 71.

<sup>7</sup> - المرجع نفسه، ص: 71.

<sup>8</sup> - المرجع نفسه، ص: 82.

<sup>9</sup> - المرجع نفسه، ص: 116-117.

ويعتقد الرواقيون بوجود للمادة هو بمثابة وجود منفعل، وما يفعل في المادة هو الله، فالله يسري في دخيلة المادة، والله من حيث هو مبدأ فاعل هو نار. "والعالم إلهي بالنار التي هي العلة الأولى. والوحيدة، وبما فيها من عقل وقانون وضرورة وقدر - وكل أولئك مترادفات يراد بها المعقولة التامة في الأشياء"<sup>10</sup>. وهذا يعني أن الرواقيين قد اصطنعوا مذهب هرقليطس ونكسوا بالوعي الفلسفي إلى مرحلة تاريخية فلسفية سابقة. وعلى أي حال، فإن الرواقيين يعتقدون أن العقل منبث في الكون وهو يتضافر مع النفس التي تسري في العالم أجمع "وحكم العالم بأجمعه حكم أي جسم فالعالم حي له نفس حار هو نفس عاقلة تربط أجزاءه وتؤلف منه كلاً متماسكاً"<sup>11</sup>.

والعلاقة بين الله والعالم في الفلسفة الرواقية تتحدد على أساس وحدة الوجود، فالعالم هو جوهر الله بالقدر نفسه الذي يكون فيه الله هو جوهر العالم. وعليه "الله ليس هو المبدأ الخالق للعالم فحسب، بل هو العالم نفسه"<sup>12</sup>. ويبدو أن الرواقيين قد نظروا إلى العالم بوصفه كائناً حياً، والإنسان نفسه جزء من هذا الكائن الحي الأعظم الذي، هو العالم. لأن الرواقيين قالوا "بنوع من وحدة الوجود الديناميكية، فقالوا بأن العالم جسم، وأن الله هو النفس الحالة به ويشرح ذلك فلوطرخس فيقول: إنه موجود واحد هو نفسه يتجلى مرة على شكل وحدة فردية (الله)، و مرة أخرى على شكل كثرة منقسمة (العالم)"<sup>13</sup>. والمعنى العميق لهذه النظرة يقوم على أن الحكمة تكون بالوفاق مع الطبيعة ما دام الإنسان جزءاً من كل أو قبساً من النار الإلهية، لذلك على الحكيم الرواقي أن يتماهى مع الطبيعة فيصير جزءاً منها؛ غير أن هذا الموقف الرواقي دفع فيلسوفاً مثل نيتشه لأن يقول: "الرواقية هي استبداد بالذات: أليس الرواقي قطعة من الطبيعة"<sup>14</sup>.

وبالفعل، يتضح أن غاية الفلسفة عند الرواقيين هي العمل كما كان الأمر عند الأبيقوريين. وعلى الحكيم الرواقي أن ينسجم مع العقل الساري في الكون، ويتجلى هذا الانسجام في تطبيق الشعار الرواقي الشهير: "الحياة في وفاق مع الطبيعة". وهنا يتحدد معنى الفضيلة. "وحياة الفضيلة هي الحياة بحسب الطبيعة وبحسب سنة الكون الذي يخضع كل شيء فيه للعقل الكلي الذي لا يختلف عن الإله (زوس) رب الكون وحاكمه"<sup>15</sup>.

10 - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص، 228.

11 - المرجع نفسه، ص: 227.

12 - أمين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مرجع سبق ذكره، ص: 132.

13 - بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، مرجع سبق ذكره، مادة: وحدة الوجود. (ص: 625).

14 - نيتشه، فردريك، ما وراء الخير والشر، ترجمة: جيزيلا فالور حجار، غروب في، بيروت، الطبعة الأولى، 1995، ص: 27.

15 - فخري، ماجد، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص: 176.

ومهما يكن من أمر التأويل الذي نختاره للموقف الرواقي، فإنه سوف يدل على استسلام قدرتي للحياة، وخضوع لها، يقوِّض بعداً أساسياً في التفكير الفلسفي، وهو الرغبة داخل الفيلسوف في الوقوف كذات واثقة مقابل موضوع. وبالتالي، غياب هذا الوضع، يقضي على الجانب النظري في التفكير الفلسفي لصالح الجانب العملي والاتجاه بالفلسفة نحو الزهد، وعدم المبالاة بالحياة.

### الأفلاطونية المحدثّة

ولاشك أن لهذه الروح الزهديّة الأثر البالغ في تغيير طبيعة التفكير الفلسفي اليوناني النظري الذي وصل إلى ذروته في فلسفة أرسطو، وذلك بإشاعة روح فلسفيّة زهدية تقشفيّة بلغت أوجها في الأفلاطونية المحدثّة<sup>16</sup>. ولابد من القول: إنّ الأفلاطونية المحدثّة لم تكن فلسفة بالمعنى النظري البحت، وإنما كانت نزعة معرفية – صوفيّة، تتمازج فيها مصادر فكرية عديدة.

فالأفلاطونية المحدثّة في حقيقتها تقوم على مزج الفلسفة بالتصوف بأسلوب يجمع الفلسفة الأفلاطونية والحكمة الشرقية، بيد أن الأفلاطونيين المحدثين حرصوا على الاحتفاظ بالروح اليوناني خالصاً، أي بالعقلية العلمية التي تنظر إلى الوجود كأنه هندسة كبرى، فتستبعد منه، بقدر المستطاع، الممكن والحادث، وتخضعه للضرورة<sup>17</sup>. وبالرغم من ذلك ظلت الأفلاطونية المحدثّة مشوبة بروح شرقية قوامها الزهد والفناء في الله. والفلسفة الأفلاطونية المحدثّة، في جملتها، تختصر، في فلسفة أفلوطين الذي صار التأمل الفلسفي بالنسبة له أداة للتحرّر من العالم المادي من أجل الخلاص، ومن ثمّ الارتقاء نحو الله، أو الأول كما يسميه أفلوطين.

ويمكن القول من وجهة نظر أفلوطينية: إن النفس الإنسانية هي التي تمنح الإنسان كماله العام، لأنها أساس وحدته، وكما أن النفس الإنسانية هي أساس وحدة كل آدمي، فإن النفس الكلية هي أساس وحدة العالم والنظام فيه؛ لكن على الرغم من أن النفس الكلية حاصلة على الوحدة، إلا

<sup>16</sup> الأفلاطونية المحدثّة: من أوائل أعلامها يودورس الإسكندراني ( 25 ق.م) بلوطارخس الخيرونيائي ( مات 120 ب.م)، ومن أعلام الأفلاطونية الوسطى ألبينوس ( القرن الثاني الميلادي)، وأيضاً عدد من الأعلام عاشوا في القرن الثاني الميلادي وهم أبوليوس ومكسيموس الصوري واتيوس. لكن الزعيم الحقيقي للمذهب هو النعمان الأفامي السوري المعروف في الترجمات اللاتينية بـ "نومونيوس السوري" ( القرن الثاني الميلادي)، وأفلوطين الفيلسوف الأشهر في الأفلاطونية المحدثّة وبعده تلميذه الفيلسوف السوري فورفوريوس ( 233-305). ومن بعده أبروقلوس ( 410-485 ب.م).

<sup>17</sup> - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص 285.

أنها متكررة، نظراً، لسريانها، في المادة سرياناً تلازمياً. وبما أن النفس الكلية ليست حاصلة على الوحدة بإطلاق، لا بد من وجود موجود أكثر وحدة من النفس الكلية ألا وهو العقل الكلي الذي يكتنف داخله جميع مثل الموجودات.

وآية ذلك "أنَّ المعقولات مترابطة متضامنة، وتقتضي عقلاً كلياً يحويها ويدرك ترابطها. ولكنه ليس الحدَّ الأول، فإنه موجود عاقل، ولا يخلو موضوع تعقله من أن يكون هو نفسه، فيكون مزدوجاً لا بسيطاً؛ أو مغايراً له فيكون الموضوع أعلى منه وسابقاً. فنرتقي إلى الواحد بالذات، وقد تدرجنا في الوحدة من البعيد إلى الأقرب. هذا الحد الأول يجب أن نتأمله بالعقل الصرف"<sup>18</sup>.

وتأمل الله بالعقل الصرف، يعني إسقاط الأغيار، والزهد بمتاع الدنيا، والانشغال بالله وحده، والصفاء المطلق الناجم عن نبذ كل هموم الدنيا، وبالتوقل في هذا المعراج، يحقق الديالكتيك الصاعد غايته عند أفلوطين، الذي يقوم على رد الكثرة إلى الوحدة.

وإذا كان الديالكتيك الصَّاعد تفسيراً لعملية الارتقاء نحو الاتحاد بالله عن طريق التأمل العقلي الصوفي الطابع، فإنَّ الديالكتيك النازل هو تفسير أنطولوجي لوجود العالم. . فالله تصدر عنه بالضرورة الموجودات بمحض الجود وأول موجود يصدر عنه هو العقل الكلي، والعقل الكلي يحتفظ، في ذاته، بمثل أو نماذج الموجودات جميعاً، التي أسَّها هو الله، وعن العقل تصدر النفس الكلية. "والنفس الكلية كلمة العقل الكلي وفعله، كما أنَّ الكلمة الملفوظة صورة الكلمة الباطنة. ولما كانت النفس الكلية صورة العقل الكلي، فهي تنظر صوبه، كما ينظر العقل الكلي صوب الواحد كي يكون عقلاً"<sup>19</sup>.

ولئن كان الواحد يصدر عنه العقل، والعقل تصدر عنه النفس الكلية، فإنَّ النفس الكلية تصدر عنها الموجودات الأرضية، التي هي محصلة لاتحاد الهيولى والأصول البذرية. "فالأصول البذرية تدفع بالكائن إلى تحقيق ماهيته وكماله، فإذا قصَّر كانت المادة هي السبب بعدم مطاوعتها للمثال والنموذج"<sup>20</sup>. وهذا يعني أنَّ الأجسام تتكون، من حلول الأصول البذرية في المادة، وتفسد أو تشوَّه بحرون المادة. وهذه العلاقة بين الديالكتيك الصاعد والديالكتيك النازل تثبت أنَّ الوعي الفلسفي لم يعد وعياً خاضعاً لاعتبارات منطقية

18 - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص: 288.

19 - المرجع نفسه، ص: 292.

20 - المرجع نفسه، ص: 293-294.

معقولة في فعل الكشف عن الحقيقة وإنما صار خاضعاً للموقف الدوغمائي الخاص بالفيلسوف. وخلاصة هذا الموقف هنا هو النزوع إلى الاتحاد بالله ضمن إطار عام يؤكد على وحدة الوجود. لكن الملاحظ أننا نجد " عند أفلوطين نوعاً خاصاً من وحدة الوجود فهو يقرر علو الله على الكون، ولكنه يقرر أن الكون "صدر" عن الله: ذلك أن العقل صدر عن الله، ثم صدر "اللوغوس" عن العقل وعبر عن نفسه خارجاً في شكل المادة المرئية، التي هي صدور بعيد عن الله. والطبيعة مملوءة بالأفكار الإلهية، والقوى الإلهية وكلها صدرت في النهاية عن الله. ولكن الله لا يستنفد في فعل الصدور عنه، بل على العكس يظل هو مع صدور الكون عنه"<sup>21</sup>.

ويتبين أننا بإزاء مذهب وحدة وجود سبق وأن ظهر بطريقة مختلفة عند الرواقيين ومن قبلهم عند الإيليين. وعلى أي حال يلاحظ هنا أن المعنى العليّ اللاهوتي للعالم صار هو في حد ذاته أساساً مطلقاً (موضوعاً - ذاتاً أو ذاتاً - موضوعاً)، يمكن الاقتراب منه بل والتوحد معه. وهذا يعني أن العلة الطبيعية للوجود صارت فاقدة للصدق الكلية لأنها في النهاية تتحلل إلى علة العلة كلها أي الله.

وهذا أمر في غاية الأهمية سوف يمتد إلى الأدبيات الفلسفية في العصر الوسيط الإسلامي والمسيحي. فالفقوانين الطبيعية أو الأنطولوجية التي تكلم عليها الفلاسفة السابقون صارت غير ذات قيمة لأن العلة المطلقة والأساسية للوجود هي الله، الواحد، الأول، الذي يرد إليه كل شيء. ولذلك تم توجيه طعنة نجلاء للوعي الفلسفي القائم على المعايير المنطقية والعقلية البحتة.

وبناء على ما سبق، نجد في الوعي الفلسفي اليوناني في دوره الثالث نكوصاً نحو الدورين الأول والثاني<sup>22</sup>. فأبيقورس أعاد إحياء ذرات ديموقريطس، والرواقيون أعادوا استخدام نار هرقليطيس بما فيها من قانون وضرورة، وأفلوطين أيضاً نزع إلى تسخير مثل أفلاطون في مذهبه عندما قال إنَّ العقل يكتنف مثلاً هي نماذج الموجودات. وهذا يعني أن تفسيرات الوجود في الدور الثاني كانت اتباعية نجد فيها مزجاً بين الطبيعيات ونظرية الوجود، فالأصل الحقيقي للوجود ذو أساس طبيعي وهذا ما يتجلى في الأبيقورية والرواقية؛ بينما نلاحظ في الدور الثاني وبشكل خاص مع أرسطو أن علم الطبيعة يمهّد للتخويض العميق في نظرية الوجود من ناحية ميتافيزيقية. وبالمقابل نجد في الدور الثالث إهمالاً للناحية

<sup>21</sup>- بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، مرجع سبق ذكره، مادة وحدة الوجود. (=ص: 625).

<sup>22</sup> الدور الأول يمثل الفلسفة ما قبل السقراطية؛ الدور الثاني يمثل سقراط وأفلاطون وأرسطو؛ الدور الثالث يمثل الأبيقورية والرواقية والأفلاطونية.

الطبيعية لصالح الناحية الروحانية. وذلك عند أفلوطين. وبالتالي يلاحظ أن الوعي الفلسفي في دوره الثاني كان فاقداً لهويّة واحدة تضبط مسيرته على عكس الدورين الأول والثاني حيث سادت النزعة الطبيعية في الأول والنزعة الميتافيزيقية في الثاني هذه النزعة القائمة على البحث عن الماهيّات. وبالجملّة يمكن القول إن ثمة تفهقراً في الوعي الفلسفي اليوناني في دوره الثالث، يرجع في حقيقة الأمر إلى جانب سياسي، فعندما " جاء الإسكندر ففتح أبواب الثقافة اليونانية للشرق، وفتح بذلك أبواب الثقافة الشرقية لليونانيين، فحدث عن هذا الامتزاج بين الثقافتين مزيج جديد هو ما يسمى باسم " الهلنستية". وبهذا التزاوج بين الثقافة اليونانية والثقافة الشرقية حدث نوع مما يسميه اشبنجلر باسم " التشكل الكاذب ". فقد تقابلت هنا حضارتان، أو بالأحرى تقابلت حضارة واحدة قد بلغت أوجها، مع حضارة أخرى أو ثقافة قد انحلت منذ زمن طويل، ولم تبق فيها إلا حياة ضئيلة. وحينئذ استطاعت الثقافة اليونانية في بادئ الأمر أن تفرض سلطانها: فبعد أن كانت الثقافة الشرقية قائمة، انتصرت الثقافة اليونانية على الثقافة الشرقية. لكن - كما يحدث دائماً من امتزاج جنس أعلى بجنس أدنى - حدث فساد وانحطاط في مستوى الجنس الأعلى لحساب الجنس الأدنى. وهكذا حدث بالنسبة إلى الحضارة اليونانية: إذ غزتها الحضارة الشرقية بما فيها من تهاويل وأمور تتصل بالخوارق والسحر، وما فيها من أديان بالمعنى السحري الصوفي - فخضعت الثقافة اليونانية لهذه العناصر الأجنبية السحرية، ومن ثم أخذت في الاضمحلال حتى أتت على نهايتها"<sup>23</sup>.

ويلاحظ في الدور الثالث أنه تمّ تغليب النزعة الحسية في نظرية المعرفة وحتى نظرية الوجود على النزعة العقلية نظراً لتأكيدات الأبيقوريين والرواقيين على أنّ المعرفة حسّية والموجود جسمي. وبذا نلاحظ إهمالاً لدور الوعي الميتافيزيقي القائم على الانتقال من المحسوس إلى المعقول؛ ولئن كانت الأفلاطونية المحدثّة أهملت المحسوس لصالح المعقول إلا أن ذلك كان أساسه الكشف الصوفي.

وقد كانت الغاية الأساسية للوعي الفلسفي اليوناني في دوره الثالث هي غاية عملية ناجمة عن حالة وجدانية أخلاقية فالوصول إلى الطمأنينة أو السعادة سواء عبر اللذة العقلية عند الأبيقوريين أو الوفاق مع الطبيعة عند الرواقيين أو الاتحاد بالأول عند الأفلاطونيين المحدثين.

<sup>23</sup>- بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، مرجع سبق ذكره، مادة: الفلسفة اليونانية، فقرة: خصائص الفلسفة اليونانية في العصر الثالث. (= ص: 192).

وبالمقابل يمكن التأكيد أنّ الوعي الفلسفي الأفلاطوني المحدث يتمتع بهوية تكاد تكون مستقلة عن الوعي الفلسفي اليوناني في دوره الثالث. وهذا يدل على توتر وتناقض في حركة تطور الفلسفة اليونانية أفضى بها إلى الانتهاء والزوال.